شرقاً وغـــربا

للدكتور محمد عوض محمد

في يوم قديم من أيام هذا الزمن السرمدي ، جلس يافث وسام إبنا نوح ، في ظل شجرات من الأثل ، ليستريحا ساعة من النهار . وإلى جانبهما جدول يجري ، له خرير هادىء وديع ، وانسياب معتدل ، ليس بالسريع ولا البطيء . ولأغصان الأثل حفيف دائم ، فيه رنة حزن بادية . كأنها انتحاب الثاكل أو أنين السقيم .

كان العالم حديث عهد بالطوفان الهائل الذي غمره ، ورحضه رحضا عنيفا قاسيا لكي يطهر مما به من رجس ، ويصفو مما به من كدر ، ويعود نقيا بريئا نظيفا . . .

يا للعجب ! أكلما تدنس وجه الأرض ، وغشيته الأقذار ، اتابته هذه الكارثة وأرسل اليه طوفان ليغمره ويطهره ، ؟ لقد عادت الأرض بعد هذا الطوفان طهرا ، كأنما خلقت خلقا جديداً ، وعاد ثغرها باسما ، وجينها ناصعا ، ووجهها زاهراً . لكن تباركت اللهم ـ ألم يكن الثمن غاليا ، والقربان جسيما ؟ أما من سيل غير هذه لكي تطهر الأوض مما تمتلىء به من الأدران وما قد يغشاها من الرجس ؟ وإلا فهل من سبيل لأن يسود هذا العالم الصفاء والطهر ، فلا ينغمس في الأقذار ذلك الانغماس المروع ، الذي لا مفر معه من كارثة ماحقة ، تعيد اليه الصفاء والنقاء ؟

لا بد أن يكون هنالك سبيل غير هذه السبيل ، وطريق لأصلاح العالم غير تلك الطريق . . . فهل لهذه العيون الحائرة من قبس من النور القدسي يهديها تلك السبيل ؟

° ° °

كانت هذه الخواطر تتردد في فكر سام ويافث ، وهما جالسان : ينظران إلى تدفق الجدول ، أو يحدقان في السحاب المنتشر في السماء ، أو يصغيان لحفيف الأثل ، أو يرسلان الطرف بعيداً الى قمم عالية يغشاها الثلج الأبدي . وهما في الحقيقة لا يريان ولا يسمعان من هـذا كله شيئا ، إذ شغلهما ما أهمهما من هذه الأفكار المتدافعة تدافع الموج . فكان كل منهما يقطب جبينه حينا ، ثم يقلب في الفضاء نظرات حائرة ، لا تكاد تعرف لها قرارا . .

وأخيراً تكلم يافث :

أي سام ! لقد حم الفراق ، ولم يبق بد من أن يتخذ كل منا في هذا العالم سبيله . فعلام عولت ؟ . . . إن هذا الطوفان الذي غمر الأرض ، وعم الغور والنجد ، قد طهر كل ركن من أركان البسيطة ، وأزال ما قد علق بها من رجس ، لكنه قد اكتسح أناساً ، وأهلك خلقا كثيراً . . ولقد أتى أمر الآله بأن تنتشر في الأرض ، وان نضرب فيها طولا وعرضا ، وأن نتناسل ونتكاثر وأن نملأ الارض بذرياتنا : وقد حم الفراق ، وستذهب في ناحية وأذهب في أخرى ، فعلام عولت ؟

قال سام :

إن الفراق أليم ، والضرب في البيداء أليم ، وقطع السهول والحزون أليم ، ولكن أشد من هذا ألما ذلك الظلام الحالك الرهيب الذي يكتنف الأيام المقبلة والسنين ، ويتجاوزها الى الأجيال والقرون ، وانى كلما أرسلت بصري باحثا مستطلعا ، أرتد الى البصر خاسئا حسيرا ، قد أجهده الضلال ، وسط ظلام دامس ، متراكم بعضه فوق بعض ، لا يعرف له آخر ولا يدرك له حد .

سوف تتكاثر وتتناسل ، ونملأ بذرارينا الارض ؛ حتى يعمر الخراب ، وتمتلىء الأقطار ؛ ثم ـــ من بعد هذا كله ـــ تنهمر السيول من السماء ، وتتفجر الانهار من جوف الثرى ، ويعم العالم طوفان مخرب مدمر ، يفتك بالناس ، ويهلك الحرث والنسل . . . أمن أجل هذا تلد وتكاثر ، لكي نسلم ذرارينا إلى هذا المصير الحزين ، كلما دارت الايام دورتها ؟

قال يافث

لقد استفحل خطب العالم ، وتكدست فوق البسيطة أدران أفسدت الثرى والهواء ، واستحالت معها الحياة . فلم يكن بد من أن يجتاح الارض هذا الطوفان ، فيملأ كل مكان ، ويغسل كل بقعة من البقاع مما علق بها من الدنس . . . فلماذا يجزنك الجزاء الحق ، والقضاء الذي لا مفر منه ؟ ونفسي تحدثني أن هذا الجزاء الصارم لا يكون إلا مرة . وأكبر ظني أن العالم بعد أن رحض هذا الرحض العنيف ، لن ينغمس في الحمأ ، ولن يغرق في الموبقات بمثل تلك الصورة البشعة التي استوجبت ذلك الجزاء ، سيكون في الناس أبداً من تدفعه نفسه الأمارة بالسوء الى مجاهل الشرور . لكن العالم في أمان ما غلب خيره على شره ، وحقه على باطله . وإن

على وعليك واجبا ألا نلد لعمارة هذا العالم غير الأنفس النقية والذرية الصالحة ، التى ترهب الأله وتلزم سننه ؛ ولئن صلح نسلى ونسلك ، فما أجدر العالم أن يغلب طهره على رجسه ، وصالحه على فساده .

الأمر إذن راجع اليك والى فعلام عولت ؟

قال سام :

من هذا العبء الباهظ أفرق ، ومن تأمل ذلك الواجب المضنى تملكنى رعدة الحائر ، وجزع العاجز .. لست أدرى يا يافث كيف يولد الشر ، ومن أين ينبع الرجس ! لقد يكون العالم ومابه الا كل بر كريم ، ثم ينقلب فى عشية أوضحاها : فاذا الشر قد طغى وساد ، والبر أوشك أن يمحى من الارض !

أن الدم الذى يجرى فى عروق — علم الله — لطهور . وأخلق بنسلى ألا يرث منى سوى الخير والهدى . ولكن من لى بان أضمن له ألا يحيد عما ورثه ، وألا تجمح به النفس الهوجاء . فينزل به السخط ويحل البلاء ويجتاحه طوفان كالذى شهدناه ؟

قال يافث :

لقد مالت الشمس نحو الأفق ، وتوشك أن تتوارى خلف تلك الجبال ، تاركة خلفها سحبا عسجدية صفراء . إن مغرب الشمس قد استهوانى ياسام ! وكأنما فيه قوة قوية تجذبنى أبدا إلى الغرب ! ولقد طالما جلست فى هذه الأثلات أتأمل الغروب ، وأفكر فى هذا الكون البديع الذى يميل نحو ذكاء ، وفى كل مرة كنت أحس دافعا شديداً يدفعنى إلى الغرب !

إلى الغرب اذن سأمضى ، وفى الغرب سأحيا ، وتحيا ذريتى ونسلى . وهنالك فلنحاول أن ننشر اليمن والعمران ..

أنا أيضا لست أدرى . كيف تولد الشرور ، والاصل فى العالم البر ، ولا أدرى كيف ينمو الرجس ، وأساس الكون الطهر . على أنى — وأن أجهدت فى هذا خاطرى — ليس بضائرى أن أعيابه ، وأن يقصر عن ادراكه فكرى . فسواء لدى أكان الشر مما يخرج من الأرض أم يهبط من السماء ، فان على وعلى ذريتى أن نعد العدة لسحقه ، وأن نهيء الأسباب لحربه . فلا تكاد شجرته أن تنبت حتى تجتث من أصولها ، ولا يكاد رأسه أن يرتفع حتى يلق ضربة فاقرة . وأنى أحس أن فى وفى نسلى قوة كامنة ستسير بالناس حتما إلى الخير ، وتردهم — ولو بعد لأى — عن كل منكر . وما هذه القوة سوى قوة الفكر البشرى : الفكر الباحث الذى يتناول الأشياء بالنظر وبالتامل ، ولا يزال مسترسلا فى البحث وفى التحقيق حتى يسلمه الامعان فى التفكير إلى سبيل الرشاد . ويريه ما انطوى عليه العالم من أسرار ، وما خبئ فيه من الحقائق . . . وسيخطو العالم خطوات بعيدة يوم يعلم الناس القوى التى تمسك الأجرام الدوارة الأكوان ، وما كمن فى الارض من كنوز . وما جرت به الأنهار من خيرات . هنالك تعم السعادة ، ويقضى على الشرور

إلى الغرب اذن سأمضى ، وهنالك سأغرس شجرة العلم ، لكى تؤتى زهرها يانعا ، وثمرها شهيا رائعا . وأنت ياسام ، علام عولت ؟

قال سام :

الآن يشرق القمر بدرا كاملا : وهو أحسن ما يكون حين يطلع فى المشرق ، اذ لا يرتفع فوق الافق إلا أذرعا . . لست أدرى هل تخدعنى عيناى . لكنى أراه وقت الشروق أكبر حجما ، وأملح وجها ، وألطف نورا . وما زلت منذ درجت يستهوينى الشروق ، وتعجبنى الشمس والنجوم ساعة تطلع على العالم . ولقد طالما جلست أرقبها الى جانب هذا الجدول الجارى . فتوحى إلى بما يطمئن له القلب الثائر ، والطرف الحائر . الشرق هو المبتدأ ، والغرب هو المنتهى ، فهنيئا لك الغرب يايافث ! أما أنا ، فان هوى نفسى فى الشرق . لا أبغى به بديلا .

فى الشرق إذن سأحيا ، وتحيا ذريتى ونسلى ، وهنالك فلأجد فى نشر أسباب العمران .

ولست أدرى هل أقدر أن أسلك بذريتى السبيل التى رسمت ، والنهج الذى تريد أن تنهج . ولئن قدرت أن أسلك سبيلك تلك ، فما أدرى أمنجيتى وذريتى من الويل ، وهاديتى ونسلى الى الرشاد ، إن عهدى بالفكر البشرى أنه كثير الضلال ، كثير الخبل فى بيداء لا تفضى الى خير . وقلما يصيب الحق إلا بعد أن يتيه فى الباطل دهرا طويلا . وما أشد خوفى يوم يطلع أبنائى على ما ثوى فى الطبيعة من قوة ، وما كمن فيها من كنوز . عند ذلك قد يلهيهم التكاثر أو يتملكهم الجشع ، ويتناحرون من أجل مادة قد لا تغنى عنهم شيئا . . . كلا ، ليس العلم أو الفكر بالذى ينقذ الناس ، فان طريقه طويلة وعرة . . .

الآن تكشف الغشاوة عن عينى وأرى السبيل واضحة جلية . إن أبنائى سيولون وجوههم شطر الدين ، وبالدين سيبلغون بالعالم أقصى مراتب السعادة والطهر .

ويبلغون حقائق الدين بالالهام ، وبالوحى ينزل من السماء ، لا بالبحث والحفر والتنقيب فى الأرض . فذلك هو الهدى الذى ليس بعده هدى ، والنجاة التى لا تعدلها نجاة . ولقد يتناحر الناس من أجل الدين ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويصيبهم من هذا أذى كثير ، غير أنه دم طاهر يسفك من أجل مأرب طاهر ، لم تدنسه المادة ، ولم يلوثه الطمع . . .

أجل وإنى لأرى الساعة كيف ينبغ من ابنائى رسل مبشرون ومنذرون وكيف ينتشر أبنائى فى العالم ، فيرفعوا علم الدين ، وينشروا الهدى ، ويحطموا الأصنام ، ولقد أسمع الساعة صوتا ينبعث من أرض كنعان ، فيملأ الأرض حبا ورحمة ، ثم أسمع بعد فترة صوتا قويا رزينا ينبعث من الصحراء فيملأ الأرض عدلا وأمنا ، فيتردد صداه من المشرق الى المغرب فاذا الأوثان تتكسر ، والشرك يمحى ، والاغلال المذلة تتحطم ، وصروح الباطل تتداك .

لاخوف اذن على العالم من طوفان يمزقه ، أو لهيب يحرقه ، مادام فيه رسل تهدى ، ودين ينير الظلام .

الى الشرق اذن سأمضى ، وهنالك فلتغرس شجرة الدين . أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وارفة الظلال ، طيبة الثمرة

* * *

ثم سكت الاخوان ، وأطرقا زمنا ، ولبثا جالسين يحدثان فى الكون ، دون أن ينطقا بكلمة ، حتى دجى الليل ، ولمعت فى السماء النجوم . وبرد الهواء ، فنهضا وجعلا يمشيان الهوينى صامتين .

حتى اذا اقتربا من منازلها مد الأخ الأكبر يده مصافحا :

— فليهنك الشرق ياسام !

— وليهنك الغرب ياياف !

محمد عرض محمد

النجاشى العادل

للآنسة سهير القلماوى

(كلا لاتطعهم واسجد واقترب) هكذا كان ينبعث الصوت خافتا واضحا عذبا حنونا ، وهكذا كان يتردد الصوت فى صدر الرسول وهو وسط الكفار والمشركين والمنافقين والمستهزئين من أهل مكة . فاذا ماتغامزوا عليه ، واذا ماتآمروا على قتله ، واذا ماتهامسوا بوحيه ، واذا ماسبوه ولعنوه وتهجموا عليه ، كان هذا الصوت الخافت الحنون يكرر ويعيد : (كلا لاتطعهم واسجد واقترب)

ولكن آل الرسول وآل عبد المطلب ، كانوا أعزاء فى قريش ، وكان الرسول محمياً بعزتهم مطمئناً للوحى الذى ينزل على قلبه . أما المسلمون المستضعفون ، أما العبيد وأما الاماء ، فلم تكن لهم عزة ولم يكن لديهم وحى ، وإنما إيمان هو كل ما يملكون . ومتى درأ الايمان عن صاحبه العذاب ؟ بل متى لم يجلب الايمان لصاحبه عذابا ؟ ورأى الرسول عذاب هؤلاء المؤمنين المستضعفين فأمرهم بالهجرة من مكة ، ولم تكن هجرة فى الاسلام بعد . فقالوا له حائرين ؟ وإلى أين نهاجر يارسول الله ؟ قال إلى الحبشة ، فان بها ملكا عادلا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا .

وفرقة من المسلمين بدينهم لأول مرة ملتجئين الى النجاشى العادل ملك الحبشة ، فآواهم ونصرهم وأقاموا عنده فى خير جوار لم يؤذوا ولم يسمعوا شيئا يكرهونه ، ولكن قومهم بمكة عز عليهم هذا الفرار ، أو قل عز عليهم أن يتلقاهم النجاشى هذا اللقاء . فأرسلوا وراءهم عظيمين من عظمائهم مزودين بالهدايا الثمينة ليأتيا بهم من أرض النجاشى العادل .

وفد العظيمان على أرض الحبشة فوزعا هداياهما على أساقفة النجاشى العادل ، وفى الغد قدما عليه وهو جالس على عرشه فى أبهة الملك وعزته وسطوته وقدما له هداياهما وقالا له « أيها الملك أنه قد أوى الى بلدك مناغلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، بل جاءوا بدين جديد ابتدعوه لانعرفه نحن ولا انتم . وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم لتردهم عليهم ، فهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم »

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اتفقت وزارة المعارف مع لجنة التأليف — رغبة فى نشر العلم — على تخفيض أثمان الكتب الآتية وجعل أسعارها كما يأتى :

كتاب التجوم فى مسالكها	١٢ قرش بدل من ١٦ قرش
« فتح العرب لمصر	٢٤ قرش بدل من ٤٠ قرش